المحاضرة الثانية : تعريف البلاغة :

أولا-تعريف البلاغة

1- لغة:

ورد في المعجم الوسيط بأن :"بَلَغَ الشجر بَلُغ وبُلوغا، وبَلاغا: حان إدراك ثمره، وبَلَغ الغلام: أدرك، وبَلَغ الأمر : وصل إلى غايته، ومنه "حِكمةٌ بالغَةٌ"، وبَلَغ الشيء بُلوغا: وصل إليه . وبَلَغ وبَلُغ بلاغة، فَصُح وحَسُن بيانه فهو بليغ(ج) بُلَغاء، ويقال بَلَغ الكلام (أبلغه) الشيء إليه: أوصله إليه ".

وجاء في لسان العرب أن "البلاغة : الفصاحة، والبَلغ و البِلغ : البليغ من الرجال، ورجل بليغ وبلْغ وبِلْغ :حَسَن الكلام فصيحه يبلغ بعبارة لسانه كُنه ما في قلبه، والجمع بُلغاء، وقد بلُغ بالضم بلاغة أي صار بليغا".

فالبلاغة عند أهل اللغة تحمل معنيين :

- وصول الشيء إلى غايته .
- حسن الكلام مع فصاحته.

2- اصطلاحا:

عرفها الخطيب القزويني بقوله :"وأما بلاغة الكلام فهي: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته " .

يتحدد في هذا المفهوم عناصر العملية البلاغية هي :

- الكلام : ويقتضي باثا ومتلقيا .
- الحال :"المقام" هو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى إيراد حصوصية في التركيب.
- المقتضى: (الاعتبار المناسب) هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة.
- مقتضى الحال: هو إيراد الكلام على تلك الصورة.
- الفصاحة :سنتطرق إلى مفهومها فيما سيأتي.

كما أورد الجاحظ في كتابه البيان والتبيين تعريفات عدة للبلاغة منها قوله :"سئل ابن المقفع عن البلاغة قال :البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعرا، ومنها ما يكون سجعا وخطبا، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون في هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة" .

نستنتج من تعريف ابن المقفع للبلاغة ما يأتي :

- بلاغة السكوت: ويقصد بها السكوت الذي يتطلبه المقام .
- بلاغة الاستماع: يقصد بها حسن الاستماع الذي يؤدي إلى حسن الفهم.
- البلاغة في الاحتجاج: وتعني كفاية الرد والجواب في مقام المناظرات والمناقشات.
- ومنها ما يكون ابتداء: مناسبة الاستهلال للمقام.
- ومنها ما يكون شعر ومنها ما يكون سجعا وخطبا ومنها ما يكون رسائل: ويقصد بها صنوف الفنون التي تعد البلاغة إحدى أهم شروط فنيتها، ولكل لون فني مقامه الخاص.
- فعامة ما يكون فيها : يشير ابن المقفع إلى معيار البلاغة الذي لا يخرج عن هذين الشرطين هما :

- الإلهام والإشارة إلى المعنى .
- الإيجاز بالقدر الذي يحتاجه المعنى .

يتضح مما سبق من التعريفات الاصطلاحية للبلاغة شروط الكلام البليغ والتي تتلخص في الآتي:

- أن يكون الكلام مطابقا لمقتضى الحال.
- أن تكون غاية المتكلم إفهام السامع.
- أن يكون الكلام موجزا.
- أن يكون فصيح المفردات والجمل.

فأما الشروط الثلاثة الأولى فقد تطرقنا إلى شرحها فيما سبق، وأما الشرط الأخير المتعلق بالفصاحة فسنتطرق إليه بنوع من التفصيل فيما يأتي ذلك لأن الفصاحة لها تقاطع كبير مع البلاغة سواء من حيث المفهوم أو من حيث الإجراء .

ثانيا ـــ مفهوم الفصاحة

1ـــ لغة :

جاء في القاموس المحيط بأنها: " الفَصْحُ والفَصاحة: البيان، فصُح، ككَرُم، فهو فصيح وفَصْحُ من فُصحاء و فِصاح وفُصَح، وهي فصيحة من فصاح و فصائح، أو اللفظ الفصيح، ما يُدرَكُ حُسنُه بالسمع، وفصُح الأعجمي ككَرُم : تكلم بالعربية، وفُهِم عنه، أو كان عربيا فازداد فصاحة، كتفَصَّحَ، وأفصح: تكلم بالفصاحة، ويومٌ فِصح بالكسر ومُفصَح :بلا غيم ولا قر، وأفصح اللبن: ذهبت رغوته".

وتكاد تجمع كل المعاجم العربية على أن الفصاحة في معناها اللغوي تعني : الظهور والخلوص والإبانة .

2- اصطلاحا:

يعرفها السكاكي بقوله: :"وأما الفصاحة فهي قسمان :راجع إلى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد، وراجع إلى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصلية، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور، واستعمالهم لها أكثر، لا مما أحدثها المولدون ولا مما أخطأت فيه العامة، وأن تكون أجرى على قوانين اللغة وأن تكون سليمة عن التنافر"

نستخلص من هذا القول أن للفصاحة شروطا سنوضحها فيما يأتي:

1ـــ سلامة التركيب من ضعف التأليف :

ونقصد بضعف التأليف"أن يكون تأليف الكلام مخالفا لما اشتُهر من قوانين النحو المشهورة"، كرجوع الضمير على متأخر لفظا ورتبة في قول حسان بن ثابت :

ولو أن مجدا أخلد الدهر واحدا من الناس أبقى مجده الدهر مطعما.

فإن الضمير في "مجده" راجع إلى " مطعما" وهو متأخر في اللفظ، وفي الرتبة لأنه مفعول به.

وكنصب المضارع بلا نصب نحو قول المتنبي :

أنظر قبل تلوماني إلى طلل بين النقا والمنحنى

2 - **سلامة التركيب من التنافر:**

وقد تحدث الجاحظ عن تنافر الألفاظ فقال : «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وإن كانت مجموعة فى بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلّا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

ولما رأى من لا علم له أنّ أحدا لا يستطيع أن ينشد هذا البيت ثلاث مرات فى نسق واحد فلا يتتعتع ولا يتلجلج ، وقيل لهم : إنّ ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن ، صدقوا بذلك.

ومن ذلك قول ابن يسير :

لم يضرها والحمد لله شيء وانثنت نحو عزف نفس ذهول

فتفقّد النصف الأخير من هذا البيت فانك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض"

وينبغي أن تكون الألفاظ متماثلة متلائمة كي لا يقع بينها التنافر فتصبح كـــــــــأولاد علة يقول:
"وأنشدني أبو العاصي ، قال : أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى :

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسان الناطق المتحفظ.

وقال أبو العاصي : وأنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي :

وشعر كبعر الكبش فرّق بينه لسان دعيّ في القريض دخيل

فإنه يقول : إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلّات. وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها مرضيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة.

قال : وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فتعلم بذلك أنّه قد أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الدهان.

وأما قوله : «كبعر الكبش» فإنما ذهب إلى أنّ بعر الكبش يقع متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة تشق على اللسان وتكده ، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة مواتية ، سلسة النظام خفيفة على اللسان حتى كأنّ البيت بأسره كلمة واحدة ، وحتى كأنّ الكلمة بأسرها حرف واحد.

3 ــ سلامة التركيب من التعقيد اللفظي:

وحقيقته "أن تكون الألفاظ مرتبة لا على وفق ترتيب المعاني، فيفسد نظام الكلام وتأليفه بسبب ما يحصل فيه من تقديم وتأخير ونحو ذلك، كتقديم الصفة على الموصوف، والصلة على الموصول" .

ومثال ذلك قول المتنبي :

أنّى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد ؟

والوضع الصحيح أن يقول: كيف يكون آدم أبو البرية، وأبوك محمد وأنت الثقلان؟ فقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما " أبوك محمد" وقدم الخبر على المبتدأ تقديما يدعو إلى اللبس في قوله "والثقلان أنت".

وكقول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مُمَلّكا أبو أمه حيٌّ أبوه يقاربه.

يعلق القزويني على هذا البيت فيقول :"كان حقه أن يقول: وما مثله في الناس حيٌّ يقاربه إلاّ مملكا أبو أمه أبوه، فإنه مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك بن مروان فقال : وما مثله ـ يعني إبراهيم الممدوح ـ في الناس حي يقاربه، أي أحد يشبهه

في الفضائل، إلا مملكا، يعني هشاما، أبو أمه، أي أبو أم هشام أبوه، أي أبو الممدوح

فالضمير في "أمه" للمَلَك، وفي "أبوه" للممدوح، ففصل بين "أبو أمه" وهو مبتدأ و"أبوه" وهو خبر ب "حيّ" وهو أجنبي وكذا فصل بين "حي" و"يقاربه" وهو نعت حي بـ "أبوه" وهو أجنبي وقدم المستثنى على المستثنى منه، فهو كما تراه في غاية التعقيد" .

4- **التعقيد المعنوي :**

عرفه القزويني بقوله :"هو أن لا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول إلى المعنى الثاني ـ الذي هو لازمه والمراد به ـ ظاهرا".

كقول العباس بن أحنف :

سَأَطلُب بُعدَ الدّار عنكم لتَقرَبوا وتَسكُبُ عَينَايَ الدُّمُوع لتَجمُدا.

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن وقد أصاب في ذلك، ثم طرد ذلك في نقيضه، فأراد أن يكنّي عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود لظنه أن الجمود خلوّ العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر، وأخطأ لأن الجمود خلوّ العين من البكاء في حال إرادة البكاء منها فلا يكون كناية عن المسرة، وإنما يكون كناية عن البخل.

ويلخص صاحب كتاب البلاغة الواضحة شروط الكلام الفصيح بقوله :"فالكلام الفصيح ما كان واضح المعنى، سهل اللفظ، جيد السبك، ولهذا وجب أن تكون كل كلمة فيه جارية على القياس الصرفي، بينة في معناها، مفهومة عذبة سلسة، وإنما تكون الكلمة كذلك إذا كانت مألوفة الاستعمال بين النابهين من الكتّاب والشعراء، لأنها لم تتداولها ألسنتهم، ولم تجر بها أقلامهم إلا لمكانها من الحسن باستكمالها جميع ما تقدم من نعوت الجودة وصفات الجمال".